الفئات الهشة في العراق: قراءة في سوسيولوجيا اللوحة الاجتماعية

أ. د. كريم محمد حمزة*
أكاديمي وباحث من العراق

* أستاذ علم الاجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

شهد العراق في العقد الأخير على وجه الخصوص ظروفاً صعبة، تمثلت في أزمات متلاحقة أدى إليها الاحتلال، وآزرها الارهاب، وحروب الإخوة الاعداء، وضآلة مخرجات خطط التنمية، لقد تواصلت تلك الأزمات مع سبقها من حروب وسوء إدارة للموارد، وانتهاك لحقوق المواطنين، لقد أدت تلك الظروف إلى تفاقم ظاهرة الفئات الهشة دعداً وتوزيعاً ومعاناة، ومن المؤسف أننا نفتقر إلى دراسات معمقة لأحوال تلك الفئات في ضوء رؤية سوسيولوجية معمقة، تتداخل ظواهر الهشاشة مع ظواهر أخرى كالاستبعاد والعزلة والهامشية، وتنمو في بيئات الفقر والعنف وشلل الحياه الاقتصادية، وتواجه ضعفاً في برامج الرعاية الاجتماعية، والضمان الاجتماعي، فضلاً عن ضعف نظم التعليم والصحة مما يفاقم من مشكلات الفئات المهمشة.

في التعريف: ظواهر متعددة وتصورات متباينة

الهشاشة Vulnerability مفهوم شديد التعقيد، يتداخل مع مفاهيم لا تقل عنه تعقيداً مثل الاستبعاد الاجتماعي S. Exclusion، والفقر والعزلة والاجتماعية وغيرها من المفاهيم، التي تزدحم بها الأدبيات السوسيولوجية والاقتصادية والنفسية، دون تعاريف جامعة مانعة لها، بل إن معظم التحليلات والتفسيرات لا تخلو من مضامين سياسية وايديولوجية، لقد كان المهمشون والمستبعدون والفقراء خطبَ كل الثورات، ورؤوس أقلام

كان المهمشون والمستبعدون والفقراء خطبَ كل الثورات، ورؤوس أقلام خطب القادة الثوريين، إلا أنهم في النهاية كانوا الخاسر الأكبر

خطب القادة الثوريين، إلا أنهم في النهاية كانوا الخاسر الأكبر[1]، في العراق، قدم الجهاز المركزي للإحصاء تعريفاً للهشاشة بأنها (**مفهوم تحوطي، يهدف إلى تقويم الوضع الحدي الحرج، الذي يكون فيه المجتمع أو الأسير عرضه لمواجهات صدمات مستقبلية**)[2].

تعرف الهشاشة مجتمعٍ أو أسره بأنها قدرتهم على التكيف مع مخاطر الصدمات التي تواجههم، نتيجة الجفاف المقترنة أو الفيضانات أو تلف المحاصيل أو التذبذبات الاقتصادية أو إن القدرة على التكيف مع المخاطر المقترنة بالصدمات، ترتبط إلى حد كبير بخصائص الاسرة أو المجتمع، ومنها بشكل خاص موجوداتهم وطرق معيشتهم واستراتيجيات الأمن الغذائي التي يتبنوها.

ومن الواضح أن التعريف المذكور ينسجم مع الموضوع الأساسي للمسح، وهو(**الأمن الغذائي**)، غير أن اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، قدمت تعريفاً آخر لفئات السكان الهشة وليس للهشاشة، يشخص أصنافهم، فهم: الأيتام والمشردون من الأطفال، والمعوقون والمسنون والارامل، والمطلقات والنساء المعيلات لأسرهن والمهجرون قسراً وغيرهم، أما معيار أو محور الهشاشة، فهو أن هذه الفئات تواجه مشكلات وتحديات في حياتها اليومية، بضمنها مستوى عال من الفقراء والحرمان، وتتعرض باستمرار لحالات الاجهاد والنقِص في القدرات، أو فقدان فرص المرونة مقابل الصدمات، الهشاشة تعني فقدان الأمن الانساني للأفراد والسر والمجتمعات في بيئة متغيرة، وطبقاً للتعريف تشير هشاشة الأطفال إلى الأيتام والمشردين بشكل عام، والاطفال المرتبطين بالجماعات المسلحة، أو المتأثرين بالصراعات المسلحة، وأطفال الشوارع والأطفال المشغولين بأشكال وضيعة في العمل، والأطفال المصابين بالإيدز، والأطفال الخارجين على القانون، كذلك الحال في فئة المعوقين التي تضم أصنافاً متعددة أيضاً[3].

إن مراجعة للأصناف المذكورة تظهر بأن القاسم المشترك الاعظم بينهما، هو الفقر ولذلك فإن قانون شبكة الحماية في العراق، غطى معظم تلك الأصناف، وأن تصنيفات الابتعاد الاجتماعي، تضمنت عدداً من حالات الهشاشة، وخصوصاً تلك المتعلقة بالفقر، ويعتقد بل جوردن أن أية

تشير هشاشة الأطفال إلى الأيتام والمشردين بشكل عام، والاطفال المرتبطين بالجماعات المسلحة، أو المتأثرين بالصراعات المسلحة

(1) ينظر حول بعض المفاهيم من حيث تعريفاتها وعلاقاتها، كريم محمد حمزة، الاستبعاد الاجتماعي مراجعة استطلاعية للمفهوم، مجلة العلوم الاجتماعية، جمعية علم الاجتماع، بغداد، العدد الرابع، 2012، ص 52.

(2) الجهاز المركزي للإحصاء (وجهات أخرى)، التحليل الشامل للأمن الغذائي والفئات الهشة، العراق، برنامج الاغذية العالمي، 2008، ص7.

(3) اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، تحليل الوضع السكاني في العراق، صندوق الامم المتحدة للسكان UNFPA، 2012، ص172.

نظرية تسعى لتفسير العلاقة بين حاجات الفرد، والاستبعاد الاجتماعي[4]، لابد أن تحلل الانشطة الاقتصادية البشرية، فالأفراد يصبحون في حالة أشد من التهميش، حين لا يكون لديهم سوى القليل من القدرات الشخصية، والموارد المالية وحين يواجهون مخاطر مرحلة الطفولة والشيخوخة والمرض والعوق، الهشاشة ـ حتى حين نرى في الفقر بؤره أساسية لها ـ ، هي حاله تتجاوز الفقر بمعناه البسيط ممثلا بقله الدخل، إنها حالة من الاحتياج والنقص الذي تحول دون تمتع الفرد بحقوق المواطنة، وهي من الناحية السلبية تعكس الفشل في الأداء الكفوء، للوظائف المناطة بمؤسسات الدولة، وأنها تعكس من ناحية الأثر والنتيجة عزلة أو استبعاد عن تيار الحياة الاجتماعية.

(4) Peace Robin social exclusion - concept in need of definition - soc. Policy Joy of New Zealand - issue - 16 July - 2001 - pp. 20.

إن تعريفنا للهشاشة يتضمن جانبين:

ـ أولهما العوامل المتعلقة بالناس (الفرد، الاسرة، الجماعة..)، والتي تأخذ مظاهر العوق واليتم والترمل والشيخوخة والعجز عن العمل، مع ملاحظة أن بعض الافراد قد يفرضون على أنفسهم نوعاً من العزلة الطوعية متقبلين فقرهم.

ـ ثانيهما العوامل المؤسسية، التي تعكس عجز الدولة عن توفير الخدمات والفرص التي يستحقها الناس عموماً بوصفهم مواطنين.

وفي العراق- مع ما يعانيه المجتمع، من أزمات متلاحقة وعمليات ارهابية وفشل في التنمية ــ ، فأن من المتوقع أن تصبح اللوحة الاجتماعية قاتمة

إن كلاً من الجانبين المشار اليهما، يتسع ويتعاظم تأثيره حين يدخل المجتمع، نفق الأزمات والحروب، إذ مع تضخم النوع الأول من العوامل، فإن النوع الثاني يتعرض إلى شلل في الأداء، فيفقد قدرته على تقديم الخدمات المناطة به، إن ذلك قد يعيد لبعض المؤسسات والنظم التقليدية (الدينية والعشائرية مثلاً)، دورها وأنه قد فسح المجال للأنشطة الطوعية (مثل منظمات الطفولة ومنظمات رعاية المعاقين)، أنٌ الفئات الهشة والمستبعدون موجودون في كل مجتمع، بل إنٌ من الملامح الصادقة للعقدين الماضيين ما يتمثل في انحطاط معايير نوعية الحياه في كل أنواع المجتمعات، وخصوصاً في تلك الأشد فقراً في العالم الثالث[5]، وفي العراق ـ مع ما يعانيه المجتمع، من أزمات متلاحقة وعمليات ارهابية وفشل في التنمية ـ ، فأن من المتوقع أن تصبح اللوحة الاجتماعية قاتمة.

(5) Jordan bill - a theory of poverty and social exclusion - Cambridge.polity press 1996, p. 5.

بيئة موائية للهشاشة

تشكل العولمة واقتصادات السوق، فضلاً عن العمليات الإرهابية، والحروب وضغوط الحصار، والصراعات الاثنية، مصادر اساسية للهشاشة، وخصوصاً في المجتمعات التي لم تنجح في بناء مضلات أمان واسعة[6].

(6) Ibid - p. 1.

وتتعاظم المخاطر حين تتواصل تأثير تلك المصادر لفترات طويلة، فتترسخ بيئة اللا أمن ويصبح كثير من الناس عاجزين، ليس عن تلبية احتياجاتهم فقط، بل عاجزين عن تقرير مصيرهم، إن جوهر اللا أمن الإنساني يكمن في الهشاشة، فالأمن الانساني هو ـ بحسب مفوضيه الأمن الإنساني ـ (**حماية الحريات الحيوية وحماية الناس من الأوضاع والأخطار الحرجة والعامة وبناء قواهم وطموحاتهم**)، ويعني كذلك (**خلق النظم السياسية والاجتماعية والبيئية والاقتصادية والعسكرية والثقافية**)، التي تمنح الناس أسساً لكي يبنوا بقاءهم وكرامتهم ومعيشتهم[7]، وحين نراجع قائمة الفئات الهشة التي أوردها الجهاز المركزي للإحصاء، نجد أن أغلبها أن لم نقل كلها تتصل اتصالاً مباشراً بالفقر، الذي يشكل بيئة تجعل الشاشة حالة متفاقمة وذات ديمومة تجعل التكيف شبه مستعصٍ، وخصوصاً حين تكون السياسات الاجتماعية والاقتصادية قاصرة عن توفير حلول للتخفيض من الفقر وإيجاد برامج فعالة للعمل الاجتماعي، وحين يتعاظم في الوقت نفسه عدد الاشخاص الذين يتعرضون لمخاطر الإرهاب والعنف وسوء إدارة الموارد.

(7) أهمية الضمان الاجتماعي كمجموعة من التدابير لمواجهة بعض حالات الفقر والهشاشة، مكتب العمل الدولي، جنيف، الضمان الاجتماعي من أجل العدالة الاجتماعية وعولمة عادلة، 2011، ص6.

إن أهم ملاحظة عن الفقر العراق، تتمثل في أن معدلاته قد ارتفعت في بعض المحافظات بين 2007 ـ 2012، فمثلاً ارتفع المعدل من (49%)، في المثنى إلى (52,5%)، وفي القادسية من(35%) إلى (44%) وفي ميسان من (27%) إلى (42%)، وفي ذي قار من (34%) إلى(41%)، وفي نينوى من (23%) إلى (34,5%)، وفي أربيل من (2%) إلى (3,6%)، غير أن المعدل الوطني انخفض من (23%) إلى(18%)[8].

(8) كارنيا باتثياني، عقبات في وجه الامن الانساني، تقرير الراصد الاجتماعي، 2014، تقرير منظمة المواطنين الدولية، الخوف والعوز في وجه الأمن الانساني، ص16.

إن تأثير العامل الأمني على الاحوال الاجتماعية واضح، في محافظات مثل نينوى وديإلى، غير أن سوء إدارة الموارد يبدو واضحاً في محافظات مثل المثنى والقادسية وميسان، وأياً كانت الأسباب فأن معدل الفقر في العراق، مازال عالياً، (18%) وكان مسح خارطة الحرمان، قد أظهر مؤشرات مهمة حول ملامح الأسر والأفراد المحرومين.

يعيش معظم المحرومين في أسر كبيرة الحجم، وفيها عدد كبير من الأطفال أو أسر صغيرة، يرأسها مسنون ولا سيّما من النساء، وهن غالباً الأرامل والمطلقات

فالأسر التي ترأسها نساء هي أكثر حرماناً من تلك التي يرأسها رجال(32%) مقابل (27%)، ويعيش معظم المحرومين في أسر كبيرة الحجم، وفيها عدد كبير من الأطفال أو أسر صغيرة، يرأسها مسنون ولا سيّما من النساء، وهن غالباً الأرامل والمطلقات، وأن حوالي (76%)، من المحرومين لم يلتحقوا إطلاقاً بالمدرسة أو لم يكملوا الابتدائية[9].

(9) كريم محمد حمزة، مشكلة الفقر وانعكاساتها الاجتماعية في العراق، بيت الحكمة، بغداد، 2011، ص88. كذلك ينظر: مهدي العلاق، متابعة تنضيد الاستراتيجية الوطنية للتخفيف من الفقر، محاضرة منشورة، 2014.

ثمة وجه آخر للفقر يتمثل في العشوائيات التي بلغ تجمعاتها في العراق(1552)، تجمعاً منها (21,6%) في بغداد و(17,5%) في نينوى، وتضم العشوائيات (346881)، مسكناً يعيش فيها (2418864) فرداً[10]. الوجه الآخر يتمثل في أن معدل الإعالة العمرية يبلغ (77)، أي إن كل (77) شخصاً في سن العمل (15 ـ 64 سنة) يعيلون (100) شخص من السكان، خارج قوة العمل وأن (2,8%) من السكان، الذين غيروا محل إقامتهم فعلوا ذلك، بسبب التهديد بأشكاله كافة و(2,5%) بسبب الصراع المسلح، وقد شهدت الأشهر الأخيرة خصوصاً تصاعداً في أعداد الضحايا من العراقيين لأسباب تعلق بالإرهاب والعنف، ولاشك في أن كثيراً من هؤلاء تركوا أيتاماً وأرامل، وتعرض بعضهم الآخر لأشكال من العوق.

(10) الجهاز المركزي للإحصاء، خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق، دراسة في ثلاثة اجزاء، 2011، ص8.

منذ عام 2007 فأغنى (20٪) من السكان يكسبون (7) مرات أكثر من المجموعة الاقل دخلاً

الوجه الاخر للفقر، يبدو في حقيقة أن مشكلة عدم المساواة في الدخل تفاقمت على الصعيد الوطني، منذ عام 2007 فأغنى (20%) من السكان يكسبون (7) مرات أكثر من المجموعة الاقل دخلاً، بعد أن كانوا يكسبون أربع مرات عام 2007، ويبدو أن شبكه الحماية الاجتماعية لا تواكب الزيادة السكانية، إذ انخفضت نسبة المشمولين بإعانات الشبكة على مستوى محافظات العراق، عدا إقليم كردستان من (2,7%) عام 2009 إلى (1,4%) عام 2011[11].

(11) مهدي العلاق، مصدر سابق.

إن عوامل أخرى إضافية، إلى جانب ما تقدم جعلت البيئة العراقية أشد ازدحاماً بالمخاطر ولعل في مقدمتها استخدام الأسلحة المحرمة دولياً، والألغام، فعلى سبيل المثال كشف مسح أجري عام 2004، أن نسبة المصابين بإعاقات مزمنة ممن لم يكونوا جنوداً قد ازدادت منذ عام 2003.

وتشكل الألغام والاعتدة التي لم تنفجر والبقايا المتفجرة الأخرى للحرب، مشكلة رئيسة في العراق، فقد تأثر المجموعة (1,579) مجتمعاً محلياً بالألغام منها (93) مجتمعاً تأثرت بنحو بليغ، وتشكل الألغام والاعتدة التي لم تنفجر والبقايا المتفجرة الأخرى للحرب، مشكلة رئيسة في العراق، فقد تأثر المجموعة (1,579) مجتمعاً محلياً بالألغام منها (93) مجتمعاً تأثرت بنحو بليغ

و(642) على نحو متوسط وتم تسجل (565)، للألغام منهم (98,1%) من المدنيين، وثلث هؤلاء دون سن (14) سنة و(45,7%)، منهم تراوحت أعمارهم بين(15 ـ 29) عاماً[12].

(12) الجهاز المركزي للإحصاء، الأمن الغذائي وظروف المعيشة والتحويلات الاجتماعية في العراق، 2012، ص43.

إلى جانب ذلك، أدى الفقر، وعوامل أخرى كالفوضى، التي صاحبت الاحتلال وتواصلت مع الإرهاب وحروب الطوائف، وتوقف أنشطة الصناعة العراقية، إلى ضغوط هائلة دفعت إلى الهجرة والتهجير، وإشاعة الكراهية وضعف التضامن الاجتماعي، وانتشار المخدرات والعمل مع الجماعات المسلحة والجماعات الارهابية إلى غير ذلك مما هو معروف، فضلاً عن أن بعض الفئات كالغجر مثلاً اصبحت أشد عزلة وشعور بالخطر، كما لوحظ أن ظواهر معينة كالانتحار، اصبحت تلفت النظر أذ كشفت المفوضية العليا لحقوق الانسان عن ارتفاع معدلات الانتحار عام 2013 المنصرمة (60%) بالمقارنة مع عام 2012، إذ بلغ عدد الحالات المسجلة (439) حالة أي حوالي (37%) شهر، باستثناء كردستان وبمعدل (23) حالة في كل محافظة، من محافظات الوسط والجنوب والنسبة الأعلى منها في ذي قار(27%).

إطار مرجعي لتفسير الهشاشة

1 ـ الهشاشة بمختلف فئاتها تعكس حالة من الاحتياج والضعف، اللذين يحدان من قدرة الإنسان على أداء الأدوار، التي تمكنه من المشاركة في حياة مجتمعة، ويجعلاه عرضة للإحباط، نظراً لضيق الفرص المتاحة له خصوصاً، حين يصبح ضحية للوهم الاجتماعي، وما يتصل به من تندر أو تجنب مما يعزز الشعور بالعزلة أو الحرمان والفشل.

2 ـ إن للهشاشة عوامل فردية واجتماعية أو ثقافية، فهي قد تنجم عن اصابة بالعوق أو العجز البدني (كالعرج أو العمى) أو العقلي، أو الشيخوخة أو

التيتم، وهو ما يدخل في إطار احد الانماط الثلاثة للوهم التي ذكرها جوفمان.

وأن للهشاشة عوامل تتصل بأنتماءات الفرد وثقافته الفرعية، التي يمكن أن تحول بنيه وبين أداء الادوار الطبيعية، واغتنام الفرص المتاحة للأخرين، ولعل أفضل مثال لهذه الفئة هو الغجر، وهو ما يدخل في أطار الوصمة المرتبطة بالعرق أو الامة أو الدين، فضلاً عن أن الهشاشة قد تنجم عن مثالب السمعة الشخصية (مثال ذلك السجناء والمدمنون على المخدرات والشواذ جنسياً) وهو ذكره جوفمان ايضاً[13]، ويطابق إلى حد كبير فئة (العزلة)، التي ذكرها روبرت ميرتون، كاستجابة لظروف الفوضى الاجتماعية (الآنومي)[14].

(13) يونسيف، ابقاء شعلة الامل في زمن الازمات، دراسة تحليلية لوضع الطفل والمرأة في العراق، اب /2007، ص77.

(14) ارفنج زايلتن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ترجمة: محمود عودة، الكويت، ذات السلاسل، 1989، ص350.

3 ـ تتفاقم حالات الهشاشة المذكورة من حيث مظاهرها وآثارها، بسبب القيم المضافة الناجمة عن عدم توافر برامج عمل اجتماعي أو مؤسسات اجتماعية وطبية فاعلة، يمكن أن تقدم العون، الذي يمكن المهمشين من تجاوز ضغوط الاجتياح والضعف، ويمكنهم ولو جزئياً من الإسهام في تيار الحياة الاجتماعية، فالطفل اليتيم، أو الطفل من عائلة مفككة، قد يصبح من أطفال الشوارع، اذا لم تكن هناك مؤسسات ايوائية والأم المعيلة للأسرة، قد تضطر إلى دفع أطفالها للعمل في أعمار مبكرة، وقد يتجه بعض المعاقين إلى التسول.

هناك تصاعداً في معظم فئات المهمشين، مع استمرار ضعف الجهد التنموي، الذي يوسع فرص الناس

إن مراجعه لعناصر البيئة المؤاتية للهشاشة، تمكن من الافتراض بأن هناك تصاعداً في معظم فئات المهمشين، مع استمرار ضعف الجهد التنموي، الذي يوسع فرص الناس، ومحدودية تأثير شبكة الحماية الاجتماعية، ومؤسسات الايواء، وتفاقم معدلات الجرائم، وانتشار تعاطي المخدرات واستمرار حالة اللا أمن، وضعف آليات الضبط الاجتماعي، ويمكن القول إن هذه الفئات قد لا تكون منفصلة عن بعضها، بل أن حالة معنية قد تفضي إلى حالة أخرى، فالفقر، وغياب سلطة الآب عن الأسرة، قد تدفع الطفل إلى ترك المدرسة وممارسة مهنه تعرضه إلى الجنوح أو المخاطر، أو لمخاطر صحية وسلوكية.